دور عقلانية عصر الأنوار في بناء الإطار المعرفي لنظرية النحو التوليدي التحويلي

أ.د. بوشعيب بن مسعود راغين (*)

يعد البحث في الإطار المعرفي للنّظرية التّوليدية بحثًا في تاريخ الفلسفة الإنسانيّة بمجملها، كما يعد بحثا في نظرية المعرفة العلمية؛ بغية الوقوف على حقيقة التّحول الجذري الذّي حدث في ساحة الدّرس اللّساني الحديث، وكيف استطاع تشومسكي من خلال نظريته التّوليدية التّحويلية أن يقوّض دعائم البنيويّة التّي كانت هي السّائدة في الأوساط اللّسانية إلى عهد قريب؟ فبعد التّتبع والبحث والتّمحيص وجد البحث أن سرّ هذه الثّورة العميقة الجذور يكمن في أمرين اثنين:

أولا: العودة إلى تعاليم المدرسة العقلانية في الفلسفة.

ثانيا: إعادة النّظر في نظرية المعرفة؛ لأنّ تشومسكي أدرك يقينا أنّه لا يمكن بحال من الأحوال تحقيق أيّ نجاح علمي في الدّرس اللّساني إلاّ بإعادة النّظر في هذه الحيثيات، وإعادة هيكلتها؛ لأنه لا يمكن النّهوض باللّسانيات الحديثة، ونقلها من دائرة العلوم النّظرية إلى مصافّ العلوم الطّبيعية التّطبيقية إلاّ بمراعاة خطوات إجرائية تتمثّل في النّظر الفاحص في موضوعه، وتحديد منهجه، ومجاله، وعلاقة المجال بغيره من المجالات الأخرى، فتحديد الموضوع تحديدا دقيقا في كلّ فن من الفنون العلمية يؤدّي إلى العمق المعرفي، وأنّ هذا العمق لا يتأتى إلاّ من خلال التخصص الدّقيق؛ لأنّ المنشغلين في المجال سيركّزون على الموضوع بكلّ ما أوتوا من قوة وكفايات علمية، ووسائل منهجية، وبهذا تتحقق النّتائج.

(*) أستاذ اللسانيات بجامعة طيبة.

والعلوم بالنّسبة إلى مواضيعها تنقسم إلى قسمين اثنين: علوم لها موضوعات جاهزة فلا تحتاج إلى ابتكار أو بناء، كعلم الطّب مثلا، وعلوم ليست لها موضوعات جاهزة لكن تبنى لها، فعلم اللّسانيات من هذا القبيل، فيحتاج إلى بناء موضوع، وموضوع اللّسانيات هو كلّ ظواهر اللّغة، سواء تعلقت بها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ لأنّ اللّسانيات هي: الدّراسة العلميّة للّسان بمستوياته المختلفة: الصّوتي، والصرفي، والتركيبي، والمعجمي، والدّلالي، والتّداولي.

فتحديد المجال وتحديد المنهج وبيان علاقة المجال بغيره من المجالات ضرورة حتمية؛ لأنه بعدم تحديد الإطار العلمي تتداخل زوايا النّظر لتناول الموضوع؛ نظرا لاختلاف المنطلقات القبلية للنّسق الأكسيومي[1] مما يؤدّي حتما إلى عدم انسجام في النّتائج، وينبغي أن يكون إطار كل علم مسوّرا ومحدودا كما يقول المناطقة؛ لأنّ كل إخلال بشروط العلم ينعكس سلبا على نتائجه وتتضخم لدينا البحوث والآراء والتّأملات، لكن بلا نتائج تذكر، في حين أنّ أدنى مجهود يبذل في المجال العلمي تتحقق معه النّتائج، وهذا هو الفرق الجوهري بين المعرفة غير العلمية والمعرفة العلمية، التّي بها استطاع تشومسكي أن يزعزع أركان البنيوية، فأصبح الحديث عنها حديثًا عن تاريخ العلم؛ أي: تمّ تجاوزها تماما؛ لأنّ هناك مستويين داخلَ أي معرفة علمية هما:

المستوى الوصفي: وهو المستوى الذي يُعْنى بالمعارف العلمية التي تقف عند حدود الوصف ولا تتجاوزه.

والمستوى الثاني: وهو الأرقى – هو المستوى التّفسيري الذي يقوم بتفسير السّلوك والوقائع التي يعالجها العلم، فاللّسانيات التّوليدية استطاعت أن تحدث ثورة معرفية ونقلة نوعية من خلال المنهج الاستنباطي التّفسيري الذي اعتمدته مما قوّض دعائم المدرسة البنيويّة، التي اتّخذت المنهج الوصفي مطيّة لها، يقول

(١) النسق الأكسيومي هو: نسق المسلمات في كل فن من الفنون.

بن كيران: "إنّ التّوليدية نظرية في اللّسانيات، لكن عمقها موقف من نظرية المعرفة؛ لأنها انطلقت من اللغة إلى العقل، وإلى الطبيعة البشرية بوجه عام، أو بتعبير فلسفي: لقد انطلقت التّوليدية من مشكل أفلاطون، من الإبداع اللغوي إلى ماهية الفكر ... وشبكة العلاقات التي نسجها تشومسكي بين مكوّنات البناء النّظري، قد تبدو متنافرة أو متباعدة يصعب أن تنصهر في بناء نسقي متجانس، إلاّ أنّ هذه الصّعوبة قد تبدّد بمعرفة النّتائج التي تميّز الطّرح التّوليدي من الطّروحات المعرفية المعاصرة، ولعلّ أبرز هذه النّتائج أنّ التّوليدية لا تركن إلى الحقائق والمطلقات؛ لأنّ النّسبية التّوليدية لا مكان فيها لحقيقة مطلقة، ولا مكان فيها لحقيقة خارج الاستدلال، ليس هناك قيود صارمة واضحة لإثبات النظرية وتكذيبها، هكذا تتحدّد النّظرية بطموحها المستمر إلى التّفسير، وليس بما تقرّره من حقائق، فإنّ الباحث لا يسعه إلاّ أن يتسلح بسلاح السّعي المستمر لتنفيذ النظرية"[1]. إنّ تشومسكي قد أحدث تحوّلا في موضوع البحث اللّساني والمعرفة اللّسانية – فإنّ أهمّ ما وجّه اهتمامه في المعرفة العلمية، هو تحديد الموضوع – ، فبدل من أن يدرس تشومسكي المعطيات والوقائع اللّغوية المقحمة داخل المتون والمدونات، ارتأى أن يدرس الملكة اللّغوية باعتبارها الجهاز الذّهني الذي يولّد هذه المعطيات والوقائع اللّغوية من خلال كتابه (البنيات التركيبية Syntax Structure)[2] الصادر سنة ١٩٥٧م، فأحدث هذا الكتاب تحوّلا جذريا في الدّرس اللّساني الحديث.

---

(١) محمد بن كيران، ٢٠٠٣ ، الأصول المعرفية في النظرية التوليدية، أطروحة دكتوراه الدولة المحمدية، المغرب:٣-٤.

(٢) كان أصل هذا الكتاب أطروحة مثل بها تشومسكي لنيل درجة الدكتوراه بعنوان: "التحليل التحويلي التوليدي"، والتي نشرت فيما بعد في كتابه الأول: "البنيات التركيبية" عام ١٩٥٧م.

والسّؤال هو: كيف استطاع تشومسكي أن يزحزح أركان المدرسة البنيوية التّي كانت سائدة في أوروبا لسنوات طويلة قدرت بحوالي ٤١ سنة وأدرجها في سلة تاريخ العلم ؟

لقد جاءت التّوليدية ردّ فعل عن النّظريات العلمية والفلسفية التي سادت في النّصف الأوّل من القرن العشرين، فقد أشاع التّقدم النّسبي للعلم التّجريبي وهْمًا بقدرة هذا العلم اللامحدودة على حلّ جميع المشاكل العلمية والفلسفية العويصة، تلك المشاكل التي عجزت الفلسفات السابقة على النيل من صعوبتها، هكذا عم الارتياح إلى نتائج التّقدم التّقني الذي جعل النّاس منساقين من سراب الاعتقاد بولوج عصر نوعيّ جديد، يحلّ فيه العلم التّجريبي كلّ المشاكل المعرفية والوجوديّة التّي أرقت البشرية لأزمة طويلة.

لذلك هز تشومسكي ما شاع من أوهام، وشكك في ما عمّ من ارتياح وهمي، وباختصار لقد خلخل تشومسكي القناعة الشّائعة التي قامت على الثّقة العمياء في العلم التّجريبي، لقد ظهرت التّوليدية في مناخ فكري طابعه العام طغيان الفلسفات التّجريبية والوثوقية والنّفعية: السّلوكية السّيكولوجية والفلسفيّة، الوضعيّة المنطقيّة، البنيويّة على اختلاف مدارسها، في هذا الوسط جاءت التّوليديّة كردّ فعل ضدّ سيادة الرّوح التّجريبية وتجلياتها؛ لأنّ البحث في الأصول المعرفية للنّظرية التّوليدية بحث في أصول العقلانية المعاصرة وما يميّزها عن العقلانية الكلاسيكيّة.

وبهذا التّصور يمكن أن نقول: إنّ التّوليدية صيغة معاصرة للعقلانية الكلاسيكية، إنّها تطوير وتعديل وتطويع للإطار العقلاني الكلاسيكي ليتمكّن من طرح مشاكل المعرفة والعقل، على ضوء التّقدم النّسبي لمعطيات العلوم الطبيعية.... وإنّ مفهوم العلم في التّصور العقلاني يختلف جذريا عن مفهومه في التّصور التّجريبي؛ فإذا كانت الأنحاء البنيوية تقف عند حدود المعطيات،

قصد تصنيفها وتنظيمها وتطبيق الإجراء الاستقرائي عليها، فإنّ الأنحاء التّوليدية لا تقف عند هذا الحدود، ولا ترى في النّشاط العلمي مجرد تصنيف واستقراء؛ لأنه لا يمكن التّعامل مع المعطيات بدون أفق نظري، ولأن وظيفة العلم تتجاوز الوصف إلى التّفسير [1].

كذلك شأن المبدعين في كل العصور أنّهم ينظرون نظرة شكّ فى كلّ ما يعتقده النّاس حتميات ومسلمات، فيعيدون صياغتها، وعلى هذا النّحو كانت تأمّلات تشومسكي الطّويلة في تاريخ الفلسفة الغربية؛ ومباحث اللّغة؛ حيث جعل موضوع اللّغة منطلقا لدراسة نظريّة المعرفة العلميّة، والعقل البشري، وأن الإطار المناسب للطرح المعاصر لقضايا الطّبيعة البشرية، لا يتأتى إلاّ عبر قراءة خاصة لتاريخ الفكر الفلسفي الغربي، وكان هدفه من هذه القراءة الوقوف على المحطات الإيجابية للفكر العقلاني الذّي يجد فيه ضالته، وما كان يتأجج في داخله من شعور بوجود مؤامرة منهجة ضدّ المدرسة العقلانية، والإبداع، في تاريخ الفلسفة الغربية، وترويج للمناهج التّجريبية، فكان الفكر الفلسفي الغربي يرتسم بالبعد الأحادي في ظل غياب ملكة التفكير الناقد لهندسة القبول والإذعان الذّي كان مشاعا ومنتشرا في الأوساط الأوربيه حسب تعبير تشومسكي، ولقد توصّل من خلال تأملاته الفلسفية الدّقيقة إلى أنّ كل طفل من أطفال العالم يستطيع أن يكتسب لغة بيئته دون تعلم أو معلم، وهذا واقع، واستخلص من هذه الملاحظة أنّ هناك شيئا في دماغ هذا الطفل هو الذّي يمكنه من اكتساب اللّغة وأنّ هذا الشّيء يمكن أن نسميه "الجهاز الذّهني" أو نسميه تقنيا "الملكة اللغوية"[2].

والملكة اللغوية إذن هي التي نستطيع بواسطتها أن نكتسب اللّغة وأن نطوّر هذا الاكتساب حتى تتضح، ونكون قادرين على الكتابة والتواصل عبرها؛ إذن

(١) الأصول المعرفية في النظرية التوليدية، بن كيران:٤ -٢٠.
(٢) الملكة اللغوية هي: المعرفة الحدسية الضمنية للغة في بيئة لغوية متجانسة.

فبدل أن أدرس ما تنتجه الملكة اللغوية أدرس الملكة اللغوية التي تنتج اللغة؛ لأنّي إذا فهمت الجهاز الذّهني الذّي يولّد اللّغة فهمت اللّغة، بهذا انتقلت اللّسانيات الحديثة من دراسة اللغة إلى دراسة الملكة اللغوية، فأصبحت هي الموضوع الأساس في الدّراسات اللّسانية الحديثة.

وقد تأثر تشومسكي بالفيزيائيين فقال: إنّ الفيزيائي الذي يريد أن يدرس بنية الشّمس، وطبيعتها ومكوناتها وما درجة حرارتها، فإنه لا يستطيع أن يسافر إلى الشّمس؛ لأنه إذا اقترب منها احترق؛ لذلك فهو يحتاج إلى طريق آخر من أجل دراسة هذه الشّمس، لاحظ تشومسكي أنّ الوضع نفسه بالنّسبة للملكة اللّغوية، فاللّساني لا يتأتى له الوصول إلى دماغ المتكلم؛ ليقف على كنه الملكة اللّغوية وعلى طبيعتها، وعلى بنيتها، وعلى الكيفية التّي بها تعمل، أو بعبارة أوضح: فإنّ الشّمس ترسل الأشعة، والملكة ترسل اللّغة، فهما متماثلان من عدة حيثيات: الشّمس لا يمكن الوصول إليها، فكذلك الملكة اللّغوية لا سبيل إلى الوصول إليها؛ إذن فما الحل؟

ما فعله الفيزيائيون أدّى إلى تحوّل جذري في المعرفة العلمية وأدواتها وهو ما يسمّى الآن بـــ "النمذجة Modelisation"[1]؛ أي: بناء نموذج مشابه للشمس ودراستها لمعرفة حقيقة الشمس، أيضا في اللّسانيات يقوم الباحث فيها ببناء نموذج للملكة اللّغوية ودراسة هذا النموذج للوقوف على حقيقتها، لكن كيف تبنى النماذج؟ الشّمس ترسل الأشعة، فالفيزيائي يقتطع هذه الأشعة، ويأخذها إلى المختبر، ويعزلها عما علق بها من شوائب الجوّ، من غبار ونحوه، فمكونات هذه الأشعة هي نفس مكونات الشّمس، والطّاقة الموجودة فيها من الشّمس، فكل

(١) النمذجة هي: بناء نموذج مشابه للموضوع الذي سيقوم الباحث بدراسته، كما هو الموجود في علم اللسانيات الحاسوبية في محاولة محاكاة الذكاء الطبيعي الفطري لدى البشر.

المعلومات في الأشعة تفيد معرفة الأصل الذّي هو الشّمس، الطّريقة ذاتها هي التي قام بها اللّساني، أخذ هذه الجمل التي يتكلّم بها المتكلّم وعزلها عما يعلق بها من أمور، كالأخطاء بفعل التّعب، والإرهاق، أو ضعف الذاكرة، أو الإزعاج، فهذه الأمور ليست من صميم الملكة اللّغوية وإنّما هي خارجة عنها، لذلك تعزل وتبقى على ما تنتجه الملكة اللّغوية، فتخضع للدّراسة، ودراستها تؤدي إلى معرفة الملكة اللّغوية.

إذن أصبح هناك تحوّل، بدل أن تُدرس اللّغة في ذاتها ومن أجلّ ذاتها كما قال دي سوسير، أصبحت دراسة اللّغة في اللّسانيات المتقدمة، تنصب على الملكة اللّغوية التّي تنتج اللّغة من أجل فهم اللّغة، فانتقلنا إذن من وصف اللّغة إلى تفسيرها، كيف تنتج اللّغة؟ وكيف تفهم؟ هذا التّحول الكبير هو الذّي سمح بأن يكون للغة تقدم مذهل ليس في مجالها فقط، وإنّما في المجالات التيُ تقاربها أو التي تتداخل معها، وفي إقامة ونشوء علوم جديدة، كاللّسانيات العصبيّة، واللّسانيات الحاسوبيّة، واللّسانيات الاجتماعيّة، واللّسانيات النّفسية، وما إلى ذلك. فاللّسانيات نفذت إلى كل هذه العلوم والمعارف فأحدت فيها تطوّرا ملموسا.

تقول رشيدة العلوي كمال: "تعرف اللّسانيات تقليديّا باعتبارها علم اللّغة التي يهتم بدراسة اللّغات الطّبيعية. وهو موضوع لا يختصّ به البحث اللّساني فحسب، بل تهتم به أيضا عدد من العلوم المعرفية، مثل علم النفس والفلسفة والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) والعلوم العصبيّة، وعلم الموروثات، لكن دراسة اللّسانيات للغة تتميز بكونها مركزية وخاصة؛ لأنّها العلم الوحيد الذي يتخذ اللّغة موضوع دراسته، ويتناولها انطلاقا من تحديد بنياتها "[1].

(١) النحو التوليدي، بعض الأسس النظرية والمنهجية، رشيدة العلوي كمال، منشورات الاختلاف، ١٤٩ شارع حسيبة بو علي، الجزائر العاصمة، الجزائر، الطبعة الأولى:١٤٣٥هـ -٢٠١٤، ص:١٥.

وإنّ هذا التحول الذي حدث في اللّسانيات الحديثة خلفه تصوّر معيّن للعلم وهو: التصور العقلاني، والعقلانية تطلق على أي فكر يحتكم إلى الاستنتاج أو (المنطق) كمصدر للمعرفة أو للتّفسير؛ وبمعنى أدقّ هي: النّظرية أو المنهج الذي يتّخذ من العقل والاستنباط معيارا للحقيقة بدلا من المعايير الحسّية. وهناك مواقف مختلفة من العقلانية، منها المعتدل الذي يرى أنّ الاستنتاج له الأفضليّة على الطّرق الأخرى لاكتساب المعرفة، ومنها الأكثر تشدّدا الذّي يتّخذ الاستنتاج المصدر الوحيد للمعرفة(١).

ولقد انقسمت مذاهب الفلاسفة قديما وحديثا بناء على تصوّرهم لطبيعة الإنسان والكون، ونظرية المعرفة إلى فريقين اثنين: ماديون تجريبيون(٢)، وعقلانيون مثاليون، بين من يحلّل مسألة العقل في دائرة ثنائية الجسد والفكر، ومن يرفض هذه الثنائية من الوجدانيين، كالمادية والسلوكية، ولكن التّصور العقلاني هو هاجس الفكر الإنساني في جميع العصور والأزمنة؛ لأنّ قضية العقل واللّغة إشكالية معقدة حاول العلماء والفلاسفة طرح حلول لها، لكن بلا جدوى تذكر.

وقد يلاحظ القارئ أنّ هذه الأسئلة تقليدية ضاربة في القدم، لكن قدم الأسئلة- كما هو معلوم- ليس مسوّغا للإعراض عنها، وتجنبها، وإنها تتجدّد عبر العصور من عهد أفلاطون إلى عصر ديكارت وكانط، ولقد حاولت النّظرية التّوليدية المساهمة في الإجابة عن هذه التّساؤلات المعرفيّة في إطار جديد؛ لأن الطّروحات السابقة كانت تفتقر إلى الشّروط الملائمة لمعالجة هذه القضايا، والتّوليدية تعدّ حلقة من سلسلة الثّورات المعرفية التي عرفها التّاريخ،

(١) https://ar.wikipedia.org/wiki/

(٢) مذهب فكري يرى أن كل الموجودات نتاج المادة، وأن المادة هى الحقيقة المطلقة، وأن النظرية المعرفية لدى الإنسان مبنية على التجربة والحواس.

ولكن يبدو أنّ هناك سياسة تكتّم تمارس ضدّ هذه الثّورات وتجاهل منجزاتها الفكرية والعلمية، وأنّ هذه الثّورات العقلانية عبر العصور متشابهة في مضامينها، وإن اختلفت صورها وأشكالها، ابتداء من الأفلاطونية إلى العصر الحديث مع تشومسكي.

يقول ابن كيران: ((إن تشومسكي يعتبر أنّ التّوليدية ثورة معرفية في الفكر المعاصر، وهي امتداد للثورة المعرفية الأولى، أو الثورة الجليلية التي عرفها الفكر الغربي في القرن السّابع عشر. هناك مظاهر متعدّدة للشّبه بين الثّورتين: ثمة سمات مشتركة بين الثّورة الإدراكية المعاصرة وسالفتها، ولم يقدّر هذا التّشابه حق قدره- ولا يزال غير معروف تقريبا - لأنّ التّاريخ كان قد نسي إلى درجة كبيرة. فقد كان العمل البحثي، كالذي وجد، مضللا أو أسوأ من ذلك، فالتّوليدية ثورة معرفية ثانية تواصل ما كان قد بدأ مع الثورة المعرفية الأولى؛ لأن ما كان قد بدأ مع الدّيكارتيين في الثّورة الجليلية الأولى أجهض، ولم يكتب له الاستمرار، وجاءت الثّورة المعرفية التّوليدية، لتحيي ما كان قد تنوسي بسبب عوامل مختلفة، منها طغيان المدّ التّجريبي الذي أجهز الانبهار به على الأسئلة العقلانية الدّالة. ويعتبر طغيان التّجريبية قاسما مشتركا بين الثّورتين المعرفيتين، ثورة القرن السّابع عشر، وثورة القرن العشرين، وعلى هذا فالأصول المعرفيّة للتّوليدية بحث في أدوات البناء النّظري للرّبط بين الثّورتين المعرفتين: ثورة القرن السّابع عشر، وثورة القرن العشرين، إنّ الانبهار بالتّقدم الآلي في القرن السّابع عشر يشبه- إلى حدّ بعيد- الانبهار بالتّقدم الآلي للثّورة المعلوماتيّة في القرن العشرين مع ظهور الحاسوب، إلاّ أنّ هذا التّقدم، بقدر ما عرقل طرح الأسئلة الحقيقية حول الطبيعة البشرية، بقدر ما كان حافزا للدّيكارتيين على الطرح السّؤال الجوهري الآتي: هل يسري على البشر ما ينسحب على الآلات؟ هل يجدي التّحليل الآلي في الفهم النّسبي للكائنات البشرية؟ لقد شكّكت الديكارتية في قدرة التّحليل الآلي على استيعاب مشاكل

الطّبيعة البشرية، بنفس الطّريقة التّي شكّك بها تشومسكي في التّقدم الآلي للقرن العشرين، ومن هنا جاءت التّوليدية في بداية النّصف الثّاني من القرن العشرين ضدّ الثّقة المطلقة في التّقدم التّجريبي، وهذا يعتبر أبرز مظهر من مظاهر المشابهة بين الثورتين المعرفيتين))[1] .

فالتّوليدية نظرية تتقاطع في ساحتها الثّورات العقلية العلمية المعرفية، والقاسم المشترك هو الدعوة إلى التّحرر من ربقة التّجريبية، وسياسة التعتيم الممارس ضد الإبداع، واستعمال العقل، فهي موقف عقلاني من طبيعة البشرية، لكن ما يميّزها عن العقلانية الكلاسيكية أنّها اتّخذت من اللّغة مدخلا لتفسير الأطروحة الأفلاطونية في المعرفة، بمعنى أنها اتّخذت من تفسير "الإبداع اللغوي" أو "مشكل ديكارت" مدخلا لتفسير غنى المعرفة الإنسانية أو "مشكل أفلاطون" كما يعرف في أوساط البحث التوليدي.

يقول بن كيران: ((إن التوليدية موقف عقلاني من الدّماغ ومن الطّبيعة البشرية انطلاقا من اللّغة باعتبارها دليلا على العقل، إنّ اللّغة قرينة وحجّة على الفكر، ولذلك فهي خاصية نوعيّة لا وجود لنظيرها في الكائنات الأخرى، وعندما ندرس النّحو الكلي فإنّنا ندرس ما هو ثابت ومشترك بين اللّغات الإنسانية، أو بتعبير آخر: عندما ندرس الكليات فإنّنا ندرس الفكر، من هنا كانت مقولة العقلانيين التّي برّر بها تشومسكي دراسته للغة: أنّ اللغة تعبير عن الفكر، ولكن التّوليدية تعطي لهذه المقولة معنى عميقا يستند على معطيات المعرفة العلمية المعاصرة))[2].

---

(١) ينظر: الأصول المعرفية في النظرية التوليدية، بن كيران: ١٢- ١٣. وتشومسكي، اللغة والفكر بعض تأملات في موضوعات مبجلة، ترجمة ياسين الحاج صالح. مجلة النهج ١١ ، العدد:٤٧.

(٢) ينظر: النحو التوليدي بعض الأسس النظرية والمنهجية، رشيدة العلوي كمال:١٦، والأصول المعرفية في النظرية التوليدية، ابن كيران: ١٤.

إنّ التّوليدية ترمي إلى معرفة ما يجري في ذهن متكلم اللّغة الطّبيعية، فلقد ركّزت النّظرية التّوليدية على نقد الأطروحات التّجريبية التي لا تولي أهمية للبعد الداخلي في فهم المعرفة، وفهم الطبيعة الإنسانيّة. فإن هذا التّصور العقلاني العلمي هو الذي نقلنا من المستوى الوصفي للعلم إلى المستوى التّفسيري له، ومن المنهج الاستقرائي إلى المنهج الاستنباطي، وبفضله انتقلنا من النّحو التعليمي إلى النحو العلمي، واللّسانيات التّوليدية تقوم على مقاربة افتراضية استنباطيّة، محورها اللغّة الدّاخليّة، الكلام النفسي عند الأشاعرة؛ لأنّ المشكل الأساس بالنّسبة إليها هو تفسير كيفيّة اكتساب الأطفال للغتهم الأمّ وكيفية انتقالهم من معطيات لسانيّة أوّلية إلى نحو لغة من اللّغات ثمّ تفسير وبحث كيفية إمكان توليد أعداد لا نهائية من الجمل رغم محدوديّة المعطيات.

ومن أجل ذلك انتهج التوليديون في دراستهم للغة منهجا عقليّا، تمثّل في عدد من الافتراضات، من بينها فرضية فطرية اللّغة، على اعتبار أنّ معرفة الطّفل باللّغة أساسها القواعد الفّطرية الموجودة في الدّماغ والتي تولّد بعض التّمثيلات العقلية، مثل تمثيلات الشّكل والمعنى، وأنّ تحقيق إنسانيّة الإنسان يتوقّف على تنظيم اجتماعي لم يتحقق بعد، يعترف للإنسان بطابعه المبدع الذي يميّزه عن باقي الكائنات، لكن المشكل في نظر تشومسكي – على ما يبدو – يكمن في فهم هذه الإبداعية، يكمن في نهاية التّحليل في فهم الطبيعة البشرية، ودراسة بنية اللغة تفتح بعض الأمل لفهم هذه الطبيعة، وكأنّ الفلسفات السّابقة ركّزت على الإنسان في بعده الخارجي (التاريخي الاجتماعي) وأهملت البعد الدّاخلي، وتلك إشكالية التّوليدية، والتّوليدية مشروع يركّز بالأساس على البعد الدّاخلي للذّات العارفة؛ أي العقل كطبيعة فطرية خاضعة لقيود بيولوجية؛ لأنّ الواقع الذّهني للعقل تحدده بنية الدّماغ وهندسته.

لقد انطلق تشومسكي من الأسئلة التّي طرحت في إطار العقلانيّة منذ أفلاطون مرورا بالعقلانيّة الكلاسيكيّة وما زالت تحتفظ براهنيتها؛ لذلك يمكن أن

نقول عن المشروع التّوليدي باختصار: إنّه إجابة معاصرة عن أسئلة عقلانيّة قديمة. إنّ التّوليدية في نهاية التّحليل استمرار معاصر للعقلانيّة الكلاسيكيّة(١).

وبناء على اختلاف منطلقات "النسق الأكسيومي" أو نسق المسلّمات تختلف النّتائج، فإنّ النّظرية التّوليدية ترى أنّ اللّغة تعبير عن الفكر، فتدرس اللّغة في علاقتها بالذّهن، في حين ترى الوظيفية والبنيوية أنّ اللغة وسيلة للتّواصل، وأنها مجرد بنية، وفي المقابل يرى الدّرس التّوليدي أنّ اللّغة بينة ووظيفة، فهذه الاختلافات أدّت إلى ظهور نظريات لسانية متعددة واختلافات في النّظام التّراتبي للمستويات اللّغوية في كل نظريّة، كإدراج الوظيفيين المستوى التّداولي والسّياق والمقام في الدّرس اللّساني نظرا لمنطلقاتهم، وعليه فإنّ الدّرس اللّساني يهدف إلى الإجابة عن سؤالين مهمين:

كيف يفهم المتكلم اللّغة؟ وكيف ينتجها على مستوى الذّهن؟

إن اللّساني إذا تصوّر- في نظريته- أنّ المتكلّم يبدأ أول ما يبدأ بصياغة تركيبية للجملة، وتحديد دلالتها، ونطقها، فحينئذ يكون ترتيب النّموذج كالتالي: المستوى التّركيبي، وبعده الدّلالي، وبعده الصّوتي، وهذا ما يقوله تشومسكي في نظريته، وإذا كان اللّساني يرى أنّ المتكلم لا يتكلّم إلاّ إذا حدّد المقصود من كلامه، فهنا أول مستوى هو المستوى التّداولي ثمّ الدّلالي ثمّ التركّيبي ثمّ الصّوتي، فترتيب المستويات يتعلق بتصوّر الملكة كيف هي، ويقدم عليها نموذجا يفترض أنّ هذا النّموذج هو الذّي به يعمل المتكلم في إنتاج الكلام وفهمه.

وإذا أردنا أن نصدّق اللّساني فيما يقوله يجب أن نعرضه على مقولات علماء الإدراك في إدراك الكلام وفهمه عبر أدواتهم العلمية، كالتّصوير

(١) بن كيران محمد الطيب، الخلفية الفلسفية للنظرية التوليدية، عالم الكتب، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثالث، وينظر: الأصول المعرفية في النظرية التوليدية، ابن كيران: ٨ – ٩ .

المغناطيسي للدّماغ وأجهزة قياس الفهم والإدراك، وإذا كانت افتراضات اللّسانية موافقة مع هذه الحقائق العلمية، فهي نظرية منسجمة يمكن الأخذ بها، وإذا كانت تتعارض مع الحقائق كما وقع لتشومسكي في القواعد التّحويلية مع البناء للمجهول، يقول تشومسكي: إن قولك: "كتب زيد رسالةً" بنية محولة من "كُتِبت رسالة من قبل زيد"، يفترض تشومسكي أنّ هذه العمليات تتم بواسطة عملية تحويلية من حذف الفاعل وإقامة المفعول به مقامه، وأن الفعل ينبغي أن يطابق نائب الفاعل وتغيير لحركة الفعل كما هو معروف في النّحو، فقد أثبت علماء الإدراك أنّ المتكلم لا يقول بهذه العمليات التّحويلية بتاتا في إنتاج الجمل؛ وذلك بحسب الاختبارات التّي أجريت على عيّنات كبيرة من المتكلّمين، تبيّن أنّ النّظرية هنا غير دقيقة، وتتعارض مع حقائق علميّة، فاضطّر تشومسكي إلى التّخلي عن هذه التّحويلات وتعويضها بتفسير آخر.

هذا مثال لبيان الكيفيّة التّي تطوّرت بها النّظرية اللّسانية، وبما أنّ العقل البشري عقل محوسب؛ أي: يقوم بعمليات حسابية أثناء إنتاج اللّغة وفهمها، فالنّظرية التّي تفسّر هذه العملية يجب أن تكون مصوغة صياغة رياضيّة تسمح ببرمجتها في الحاسوب، فالنّظرية التي تتوفّق في الصّيغ التّقنية هي الأفضل من غيرها.

والمنهج التّجريبي يقوم على أساس أنّ ما نتوصّل إليه هو حقائق، وأن هذه الحقائق مطلقة انطلاقا من أمرين:

الأمر الأول: أنّه منتهج سبيل التّجربة؛ أي لا يثبت الحقيقة إلاّ عن طريق تجربة الوقائع، وملاحظتها، ومعاينتها، وإخضاعها إلى التجربة مرارا إلى أن تثبت، فتثبت الحقيقة، ويعتقد أن هذه الحقيقة مطلقة.

الأمر الثاني: يتمثل في أنّ هذه التّجربة معززة بالاستقراء، فإذا تناول اللغوي ظاهرة لغوية معينة فهو يقوم أولا باستقراء هذه الظاهرة. ثانيا: يقوم بإخضاعها للتجربة. ثالثا: الخلوص إلى النتيجة واعتبار هذه النّتيجة، حقيقة مطلقة، كما في

الفاعل في العربية، فإنّه يكون مرفوعا سواء قام بالفعل أم لم يقم به. فالتصور العقلاني قام على نقيض التّصور التّجريبي؛ لأنه لا يقول بوجود حقيقة مطلقة بل الحقيقة نسبيّة؛ ولذلك فحقيقة اليوم قد يثبت غدا أنّها خلاف الواقع، وأنّها تجانب الصّواب فتعدّل.

يقول بن كيران: إنّ النّظرية التّوليدية تقوم على افتراضات، وأنّ الحقائق فيها نسبية بالنّظر إلى المعطيات، التّوليدية لا تركن إلى الحقائق والمطلقات؛ لأن النّسبيّة التّوليديّة لا مكان فيها لحقيقة مطلقة، ولا مكان فيها لحقيقة خارج الاستدلال، ليس هناك قيود صارمة واضحة لإثبات النظرية وتكذيبها، هكذا تتحدّد النّظرية بطموحها المستمر إلى التّفسير، وليس بما تقرره من حقائق، فإنّ الباحث لا يسعه إلاّ أن يتسلّح بسلاح السّعي المستمر لتنفيذ النّظرية"(١).

وهكذا يتطوّر العلم باستمرار عند من يقول بأنّ العلم يتطوّر عبر القطائع والانتقال من إشكالية إلى إشكالية أخرى، والسّبيل إلى ذلك صياغة الافتراضات، بمعنى: إذا أردت أن تقول: إنّ الفاعل في العربية مرفوع أقول: أفترض أنّ الفاعل في العربية مرفوع، فإذا جاء غيري بما يفيد عكس هذا الافتراض أغير الافتراض، بحسب المعطيات التي جاء بها غيري، فالافتراض كلي، ويتم تغييره أو تعديله، أو إثباته بالنظر إلى الوقائع.

ومن المفارقات بين المنهج التّوليدي والمنهج التّجريبي، أنّ المنهج التّجريبي يقوم على الاستقراء، ولا يمكن البحث عن علل النّتائج بالاستقراء؛ لأن الاجراء الاستقرائي ما هو في نهاية المطاف إلاّ طريقة أخرى لقول نفس الشّيء، على حدّ تعبير باخ Bach لا يمكن للعلم أن يقتصر على طرق الاكتشاف، ولهذا لم يفرق البنيويون بحكم تجربتهم بين صورة النّحو، وطرق اكتشافه، وجاءت التّوليدية كفلسفة عقلانية ردّ فعل يتعارض تعارضا مطلقا مع التّصور البنيوي

(١) محمد بن كيران، الأصول المعرفية في النظرية التوليدية: ٣/٤.

التّجريبي للعلم. هكذا يتضح أنّ الصّراع بين التّوليدية والبنيويّة ما هو في نهاية التّحليل إلاّ صراع بين العقلانية والتّجريبية[1].

وأكبر نقطة ضعف في الاستقراء أنّه لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون شاملا، فأصبح المنهج الاستقرائي منهجا متجاوزا عنه في المعرفة العلمية الحديثة – من كارل بوبر الذي خصص كتابا[2] لنقد منهج الاستقراء وبيان عيوبه، وأنّ كل الظواهر العلمية ليست قابلة للتّجربة والاستقراء كالملكة اللّغوية، واستبدلت اللّسانيات الحديثة بالمنهج التّجريبي منهجا آخر، وهو المنهج الاستنباطي الذي يقدّم فرضية، وهذه الفرضية لا تثبت إلاّ إن لم يوجد من الوقائع ما يطعن فيها أو يحدّ من مضمونها، وقيمتها، فإذا وجد من المعطيات ما ينقد هذا الافتراض يجب إيرادها والأخذ بها، ويتم تغيير الافتراض إلى أن يصبح قائما ثابتا صلبا.

إنّ أسئلة المذهب العقلاني موحّدة في كلّ العصور، الكلاسيكيّة منها والمعاصرة، لكنّ الاختلاف يكمن في صياغاتها وأطرها المعرفية، فقد حاول تشومسكي تناولها من منطلق اللّغة؛ لأنّها تعبير وانعكاس مباشر للعقل، واستطاع بذلك خلق معادلة جديدة في المعرفة الإنسانية فقلب معاييرها، فأصبحت معرفتها هي المعرفة للطبيعة البشرية عموما، والعقل خصوصا، فدعا تشومسكي إلى تصنيف العلوم اللّغوية ضمن موضوعات علم النّفس المعرفي؛ لأنه لا يتصوّر معرفة العقل إلاّ بدراسة اللّغة دراسة ضافرية، فكما أنّ العقل البشري واحد، كذلك فإنّ نحو اللّغة كليّ وواحد بين بني البشر، وقد استطاع بفضل قناعته التّجريدية من تجاوز سلبيات وإشكاليات المدرسة العقلانية في تحريره لمثالية أفلاطون، والهروب من ثنائية ديكارت.

---

(١) المرجع السابق:٢١.

(٢) اسم الكتاب "منطق البحث العلمي"؛ حيث بيّن فيه سلبيات المنهج الاستقرائي في البحث العلمي.

يقترن اسم أفلاطون بفكرة العقلانية المثاليّة في أدبيات الفلسفة اليونانية القديمة، فقد استطاع تشومسكي من خلال قراءته الواعية لتاريخ الفلسفة الغربيّة في شتى عصورها، أن يتجاوز فكرة أرسطو المؤسّسة على أنّ المعرفة لا تحصل إلاّ على أساس بنية العالم لا على أساس بنية الفكر انطلاقا من الخاص إلى العام، من الجزئي إلى الكليّ، بهذا يصل الإنسان إلى معرفة العالم على أساس المبدأ الاستقرائي.

يقول تشومسكي في صدد عقد مقارنة بين أرسطو وأفلاطون: " إنّ أرسطو يرى أنّ العالم مبني (structure) بطريقة تجعل الفكر قادرا على إدراك هذه البنية وفهمها انطلاقا من حالات فردية، إلى النّوع، ثمّ الجنس، ليصل بعد ذلك إلى تعميمات أكبر. وهكذا سنصل إلى الكليات les universeaux، انطلاقا من حالات خاصة.

ويعقب بن كيران بقوله: إنّه لا خلاف بين أرسطو وأفلاطون في أنّ موضوع العلم هو الكلّيات، إلاّ أنّ الخلاف بينهما يكمن في تحديد الكلّي، فيرى أفلاطون أنّ الكلّي يوجد في عالم المثل المفارق، في حين يرى أرسطو أن الكليات لا تخرج عن نطاق العالم الحسي، وعلى هذا الأساس، فموضوع المعرفة عند أرسطو ينحصر في الماهيات لا باعتبارها المفارقة، بل باعتبارها كائنات فعلية في العالم الحسّي، ومعرفة هذه الماهيّات تكتسب عن طريق القوّة والفعل، أو الاستعداد والتّحصيل: ((إنّ الإنسان مستعدّ لتحصيل المعلومات، وليست المعلومات موجودة فيه بالفعل منذ أن يولد، فالشّيء الفطري الموجود لدى الإنسان ليس المضمون أو المحتوى، وإنّما هو الاستعداد لتحصيل المضمون))[1].

(١) بدوي عبد الرحمن، أرسطو: ٦٣.

ويقول ألان: (Alan) "إنّ هناك اتجاهات عامة نحو التّجريبيّة تتخلل أعمال أرسطو))[1]، ولذلك صنف تشومسكي الأطروحة الأرسطيّة في المعرفة بأنهّا تضع أساس تفسير المعرفة على بنية العالم لا على بنية الفكر، فالماهيّة عند أرسطو تركيب من المادّي والمجرّد، وتكون المعرفة حسيّة لأنها انتقال من الجزئي إلى الكلي؛ إذ الوجود الحقيقي هو الوجود الحسّي وجود الجزئيات، أمّا الكليّات أو الماهيات فلا وجود لها حسب الرّؤية الأرسطيّة إلاّ في الذّهن، لا وجود لها في العالم الخارجي؛ لأنّ الكلّي بالمعنى المنطقي حمل لا يتحقق إلاّ في موضوع، أمّا الماهيات فليست إلاّ صفات أو أعراض لا بد لها من الحلول في جوهر، وهذا الجوهر هو الجزئي الذّي له وجود في ذاته، وتوصل تشومسكي في نهاية المقارنة إلى أنّ أطروحة أفلاطون في المعرفة أكثر خصوبة وغنى من النّظرية الأرسطيّة، فإذا كان أرسطو يضع أساس المعرفة على بنية العالم، فإن أفلاطون يضع أساس تفسيرها على بنية الفكر نفسه، معللا بقوله : لأنّ معرفتنا تتوقّف على تجاربنا الخاصّة التّي تثير جزئيا النّسق المعرفي الثّاوي في ذهننا[2].

إنّ الكائن البشري في تصوّر الأفلاطوني لا يكتسب معرفة جديدة، وإنّما يعيد اكتساب معرفة قبليّة؛ لأنّ متغيرات العالم الحسّي تقابلها ثوابت عالم المثل، ولأنّ الجزئيات أو الموجودات الحسيّة مهيّ إلاّ ظلال أو رموز لحقائق ثابتة في عالم المثل الذّي هو الوجود الحقيقي، وبهذا يكون الوجود الحسّي مجرد صدى أو شبح للوجود المفارق في عالم المثل، والكمال الذي كان يحتضن النّفس قبل

(١) المرجع نفسه: ٦٤، والأصول المعرفية في النظرية التوليدية، بن كيران: ٢٧.

(٢) chomesky reflexion sur le language: ١٤. والأصول المعرفية في النظرية التوليدية بن كيران: ٢٨/٢٧.

هبوطها من عالم المثل، ونسيته في العالم الحسّي. المعرفة على هذا الأساس تذكر لما كانت تعرفه النفس معرفة قبلية [1].

السؤال هو: كيف تجاوز تشومسكي فكرة أفلاطون، وما هي مظاهر هذا التّجاوز؟ وهل له تبعات أو أثر على الدّرس التّوليدي؟ سبق القول إنّ أفلاطون يرى أنّ أساس المعرفة هو بنية الفكر نفسه، وأن المعرفة موجودة في ذهن الإنسان مذ أن كان في عالم المثل، فقد سمّى تشومسكي هذه القضية بـــ (مشكل أفلاطون)؛ حيث تساءل: كيف أنّ الانسان يعرف هذا الكمّ الهائل من المعارف، على الرّغم من محدوديّة التّجربة؟ ثمّ أجاب عن المشكل بقوله: إنّ الإنسان يعرف هذا الكمّ الهائل من المعرفة؛ لأنّ معرفته فطريّة سابقة على التّجربة.

فقد استطاع الديكارتيون تطوير هذه الفكرة قبل تشومسكي، فأصبح منطلقا للفلاسفة العقلانيين في القرن السّابع عشر، الذي يعدّ عصرا ذهبيا في تاريخ الفلسفة، يرى تشومسكي أنّ العلم الحديث مدين للتراكم المعرفي في هذا القرن، وقد سماه تشومسكي قرن العبقرية؛ لأنّه يعدّ الخط الفاصل بين العالم الحديث والعالم القديم الذي كان قائما على انسجام وتماسك الأخلاقيين الأرسطيين، وبهذا القرن حلّ علم الفلك الحديث، محل الفلك القديم المشبع بالأفكار الغيبة الميتافيزيقية، وبذلك تخلّص الفكر الإنساني من مركزية الأرض geocentrique اليونانية، ومركزية الإنسان الوسيطة، anthropocentrique، وتحررت الإنسانية من كثير من الأفكار كانت بمثابة أغلال تشدّ وثاقها، فأصبح العالم لا يقبل القراءة إلاّ بلغة العقل.

لكن التفسير الآلي للظواهر ما زالت هو المسيطر؛ نظرا لاكتشاف آلات في غاية الإتقان، مما أوهم النّاس بقدرة العلم التّجريبي على حلّ جميع المشاكل

(١) بدوي عبد الرحمن، أرسطو: ٦٣. والأصول المعرفية في النظرية التوليدية، بن كيران: ٢٨.

المستعصية، واستطاع العقلانيون الاهتداء إلى أسئلة نوعية دالة حول قضايا المعرفة واللغة والعلوم النفسية للخروج من المأزق الأفلاطوني، فإن الديكارتيين لا يقبلون الأطروحة الأفلاطونية قبولا مطلقا؛ لأنّهم يريدون تخليص الفكرة من افتراض وجود سابق أو افتراض عالم المثل، ويقررون بأنّ الفكر سابق في الوجود على المادة، كما أنّ الذات العارفة سابقة على الموضوع المعروف، وأن الفكر قدرة معرفية فطريّة سابقة على التّجربة، وأنّ المعرفة ليست امتداد للمعطيات الحسيّة، وهذا ما يفسر غنى المعرفة الإنسانيّة على الرغم من محدوديّة التّجربة وقصر العمر.

فقد استطاع تشومسكي تحرير الفكر الأفلاطوني محاولا الخروج من ربقة المثالية إلى رحابة الذّهنية، وهي في الأدبيات الفلسفية تعني نفس المثالية، لكن تفقد دلالته المثاليّة بتوظيفه في إطار النّظرية التوليدية، فإذا قلنا: إنّ اللّسانيات التّوليدية لسانية ذهنيّة، فليس معنى ذلك أنّها لسانيات مثاليّة أو نظرية مثاليّة، فمصطلح (الذّهنية) يكتسب معنى غير مثالي في النّسق التّوليدي؛ لأنّ تشومسكي يبحث عن الواقع الذّهني الثّاوي خلف مظاهر السلوك الكلامي أو الإنجاز[1]، كما سيأتي توضيحه فيما بعد، إذن؛ فالنّظرية التّوليدية نظريّة تقوم على أسس معرفيّة عقلانيّة ذهنيّة بعد أن تحرّرت من مثاليّة أفلاطون المؤسّسة على القول بالعالم المسبق. ومن النّظرة الدّيكارتية التي تقوم على تفسير العالم تفسيرا ميكانيكيا

لكن هناك مشكلة عويصة واجهت الديكارتيين، ألا وهي: هل الطّبيعة البشرية داخلة في هذا التّفسير الآلي، أو بعبارة أخرى: هل يقبل الإنسان هذا التّفسير؟ هل الإنسان آلة؟ طبعا لا يمكن لديكارت أن يسلّم بذلك، فتوجّه وجهة الثّنائيّة بين الفكر والجسد؛ لأن إدراك الفكر يأتي قبل إدراك الجسد، وأنّ

(١) الأصول المعرفية في النظرية التوليدية، بن كيران:٣٠/٤٤.

الإنسان مركّب من الجوهرين المكونين للوجود: الجوهر المادي، والجوهر الفكري، وهذا الأخير مختلف عن الجوهر المادي، فانتهى إلى الإقرار بثنائية الجسد والنفس، أو المادة والفكر، فوحّد ديكارت بين هذين الجوهرين كعنصرين يدخلان في تركيب الطبيعة البشرية، لكنه توقّف حائرا أمام الطريق المسدود في تحليل علاقة الجسد بالنفس؛ لأن الدّماغ هو أعقد تنظيم موجود على وجه هذا الكون، كما قال عبد الرحمن عدس(١).

ويقول بن كيران: إنّ التحليل الدّيكارتي لعلاقة الجسد بالنفس على أساس التفاعل بين الجوهرين المادي واللامادي، أو الجسمي والفكري، تحليل لا يصمد أمام النّقد؛ لأنّنا إذا سلمنا بالعلاقة التّفاعلية بين الجسد والفكر، جاز لنا أن نتساءل: ألا يكسب تفاعل الفكر بصفته جوهرا لا ماديّا خواص الآلة الماديّة وما يتفرع عنها من صفات وكيفيّات؟ لهذا بدت نظريّة التّفاعل الدّيكارتية عرضة للتفنيد والدّحض، حتّى بالنّسبة للديكارتيين أنفسهم؛ إذ حاولوا تجاوزها بتبني نظريّة أخرى عرفت بـــ (نظرية التّوازي)، أو (مذهب المناسبات) parallelism or ocasionalism التّي حاول من خلالها " أرنولد جيولينكس" Arnold Geulinex أن يتجاوز نظرية التّفاعل كما تبناها ديكارت.(٢)

ويرى ديكارت كذلك أنّ الشّعور والانفعال بصفة عامة عمليات تدلّ على اتحاد الجوهر المادّي والجوهر الفكري في الإنسان، ويرى أنّ الغدّة الصنوبرية مركز هذا الاتحاد؛ لأنّ هذه الغدّة نفسيّة وجسميّة في ذات الوقت، وأنّ الاتصال بين الجسد والنّفس يتمّ عن طريق الدّورة الدّموية، لكنّه بعد أن حدّد مكان اتحاد الجسد بالنّفس في الدّماغ أو في جزء منه على الأصحّ، لكنّه مع ذلك لا يفسّر كيف يتم هذا الاتحاد؛ لذلك لا يخلو التّحليل الديّكارتي من غموض في هذه

(١) المدخل إلى علم النفس: ص ١١.

(٢) الأصول المعرفية في النظرية التوليدية، بن كيران: ٣٩.

المسألة، ويضاف إلى ذلك أنّ التّصور الدّيكارتي للدّماغ يختلف عما وصلت إليه الأبحاث المعاصرة في البيولوجيا وعلم التّشريح، والدّليل على ذلك أنّ البحث المعاصر يرى أنّ اللحاء المخّي هو مركز الاتصال بين العقل والمخ(١).

هكذا ينتهي ديكارت والدّيكارتيون بعده إلى الطّريق المسدود في تحديد علاقة الجسد بالنفس، لكنه مأزق سلبيّ في الدّيكارتية يحمل في طيّاته إيجابيات؛ لأنّه أدّى إلى تساؤل يعتبر جوهريا في العقلانية الكلاسيكية، تساؤل عن طبيعة المعرفة، والطّبيعة البشريّة بشكل عامّ.

فقد قامت العقلانيّة المعاصرة بطرح الثّنائية الدّيكارتيّة والمشاكل التي بقيت معلقة إلى الآن، محاولة الإجابة عنها أو تجاوزها على أقلّ تقدير، من هذه الزّاوية يجب أن ينظر إلى قيمة الثّنائية الدّيكارتية؛ لأنها وجهت البحث المعاصر في قضايا اللّغة والفكر توجيها جديدا يتمثّل في محاولة الارتقاء إلى طرح جديد على مستوى تفسير علاقة اللّغة بالفكر، هذا هدف التّوليدية الرئيس، لذلك ستكون الأطروحة الدّيكارتية حجر أساس في محور تطوير العقلانية في الفكر المعاصر.

يقول تشومسكي في صدد بيانه للطّبيعة البشرية من خلال مناقشته مع الفيلسوف الفرنسي ميشل فوكو: سأزعم إذن أنّ المعرفة الغريزيّة أي، إن شئت، هذه التّخطيطية التي جعلت من الممكن استخلاص المعرفة المركّبة والمعقّدة من أساس البنيات الجزئيّة تماما، وهي واحدة من المكوّنات الأساسيّة للطّبيعة الإنسانيّة. وفي هذه الحالة أظن أنّها مكوّن أساسيّ بسبب الدّور الذي تلعبه اللّغة، ليس فقط في التّواصل، ولكن أيضا في التّعبير عن الفكر والمشاركة بين الأشخاص؛ وأنا أفترض أنّه من مساحات أخرى من الذّكاء الإنساني؛ أي

(١) المرجع السابق: ٣٨، ومحمود فهمي زيدان، في النفس والجسد، بحث في الفلسفة المعاصرة: ص ٢٨.

مساحات أخرى من الإدراك والسّلوك، هناك شيء من النّوع نفسه يجب أن يكون حقيقيّا، هذا التّجميع، هذه المجموعة من التّخطيطات أو المبادئ المنظمة الموروثة، التّي تقود سلوكياتنا الاجتماعية والعقلية الفردية، هي ما أقصد أن أشير إليه بمفهوم الطبيعة الإنسانية.(١)

إن اللّسانية التّوليدية تقوم على أساس الفلسفة الديكارتية التي تحاول تفسير إبداعية اللّغة في خط معاكس للتيار التجريبي الذّي يقوم على أساس مبدأ التكرار، أو العادة، أو القياس أو الفعل المنعكس الشّرطي كما يفعل السلوكيون، فإن اللّغة خاصيّة بشريّة اختصّها الله بها لتكون أداة للتّفكير ووسيلة للتّواصل بين البشر، والإنسان في ممارسته للّغة فهو في حدّ ذاته يتمتّع بإبداعيّة لا يكاد يدركها، ويتمثل ذلك في قدرته على إنتاج جمل غير متناهية لم يسبق أن سمعها قبلُ، فيستعملها بحسب مقتضيات الأحوال، في حين أنّ الوسائل؛ أي: الأصوات، والحروف كلها متناهية، وإبداع اللانهائي بواسطة النّهائي، يقول تشومسكي: ((اللّغة تعبير عن الفكر بمعنى عميق وليس بمعنى مبتذل، إنها نتاج الذكاء الإنساني الذّي يتجدّد باستمرار، ويعاد إبداعه عند الفرد بعمليات تفرّ من الإرادة والوعي بصورة مذهلة)).(٢)

ويقول بن كيران:((إن الإبداعية اللّغوية دليل على أنّ اللّغة خاصيّة يتميّز بها النّوع الإنسانيّ، ولا نظير لها في عالم الكائنات الأخرى، فهي مرآة لإبداع الفكر الذي يتجاوز إبداع أية آلة كيفما كان تعقيدها. وقد حاولت الدّيكارتية البحث عن سرّ إبداعية اللغة، ولم تنته فيها إلى تصوّر إيجابي، فجاءت التّوليدية لتعيد طرح المشكل الكلاسيكي من منظور معاصر يتجاوز الطّروحات السّابقة،

---

(١) تشومسكي وميشل فوكو عن الطبيعة الإنسانية:٢٢-٢٣، دار التنوير للطباعة والنشر، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.

(٢) chomesky ١٩٧٥: reflexions sur le language p ١٣.

منظور يختلف جذريا عمّا ساد قبله من تصوّرات، ويتجلى أبرز مظهر من مظاهر هذا الاختلاف في تصوّر وظيفة اللّغة، فقد كانت اللّسانيات التّقليدية والبنيوية تعتبر اللّغة مجرد أداة للتّواصل، إلا أنّ النّظر إلى اللّغة من زاوية وظيفتها التّواصلية لا يسمح بمعرفة الطبيعة اللغوية))[1].

(١) الأصول المعرفية في النظرية التوليدية، بن كيران:٥٦.

خاتمة :

إنّ النّظرية التّوليدية قامت على أسس المدارس العقلانية الكلاسيكية بجميع أطيافها، فإنّ تشومسكي يرى أنّ النظرية التّجريبية السلوكية فشلت في معالجة المشكلة ووضعها في إطارها الصّحيح؛ لأنها ترى أن عقل الإنسان بمثابة صفحة بيضاء خالية من أية معلومة، في حين يرى تشومسكي أن مشكلة اللّغة لا يمكن حلّها خارج إطار المدراس العقلانية فقام بدراسة الفلسفة العقلانية، الكلاسيكية القديمة؛ وذلك للنّهوض بالدّرس اللّساني الحديث، استجابة لمتطلبات العصر فبدأ بالأفلاطونية المثاليّة مرورا بالدّيكارتية الثّنائية إلى أن حطّ رحله عند الكانطية وتأثرّ بها، لولا اختلاف ظروف العصر، وتقدّم التكنولوجيا الذي كان مسعفا له في بلورة نظريته الحديثة التّوليدية، فقد استطاع تجاوز مثاليّة أفلاطون التي تقوم على أساس أنّ المعرفة هي بنية الفكر نفسه، وأن المعرفة موجودة في ذهن الإنسان مذ أن كان في عالم المثل، فقد سمّى تشومسكي هذه القضية بـــ (مشكل أفلاطون) كما سبق ذكره واستبداله بـــ (الذّهنية العقلانية) الفطرية، وتجاوز كذلك افتراضات الدّيكارتية المتمثلة في ثنائيته التي تفصل بين الجسد والفكر، ولا تخلو هذه الثنائية من انتقادات وفجوات جمة لا يمكن الخلوص منها إلاّ في إطار وحدة العالم المادي، فإنّ هدف التّوليدية الرئيس هو ارتقاء إلى طرح جديد في مستوى تفسير علاقة اللغة بالفكر، فقد استطاع تشومسكي من قلب المعادلة بعد أن كانت دراسة اللغة نسقا من الأنساق المعرفية، فقد أصبحت في اللّسانيات الحديثة هي البوابة للغور في مكامن الطبيعة البشرية، وأسرارها؛ لأنّ اللّغة هي الخاصيّة التي انفرد بها الإنسان عن جميع المخلوقات.

مراجع البحث

المراجع العربية

- الأصول المعرفية في النظرية التوليدية أطروحة دكتوراه الدولة محمد بن كيران٢٠٠٣ المحمدية المغرب.
- تشومسكي وميشل فوكو عن الطبيعة الإنسانية:٢٢-٢٣، دار التنوير للطباعة والنشر مصر القاهرة الطبعة الأولى ٢٠١٥.
- المدخل إلى علم النفس: علي زيدان دار النفائس بيروت ١٩٨٨ط ١.
- محمود فهمي زيدان، تأملات في النفس والجسد، بحث في الفلسفة المعاصرة
- بدوي عبد رحمن أرسطو منطق أرسطو ط١ دار الفكر.
- تشومسكي اللغة والفكر بعض تأملات في موضوعات مبجلة، ترجمة ياسين الحاج صالح. مجلة النهج ١١ العدد:٤٧.
- النحو التوليدي بعض الأسس النظرية والمنهجية، رشيدة العلوي كمال، منشورات الاختلاف، ١٤٩ شارع حسيبة بو علي الجزائر العاصمة الجزائر، الطبعة الأولى:١٤٣٥هـ -٢٠١٤.

المراجع الأجنبية

-Chekili Ferid, Introduction to Generative Syntax, Université Manouba, Faculté des Lettres des Arts et des Humanités, ٢٠٠٧

-Chomsky. N, La Nouvelle Syntaxe, concepts et conséquences de la théorie du Gouvernement et du Liage, traduction de Leila Picabia،présentation et commentaire d'Alain Rouveret, Editions du Seuil, Paris١٩٨٧

chomsky reflexion sur le language:

-Chomsky, Minimalist Program, MITT Press Massachusetts, Institute of Technology, Cambridge Massachusetts, ١٩٩٥.

-Chomsky(Noam,la linguistique cartesien

Cambridge,Massachustts١٩٦١

-Chomsky(Noam)Aspects of the theory of syntax, Cambridge, Massachustts١٩٦٤

-Chomsky(Noam)Lectures on government and binding,(The PisaLectures); Mouton de Gruyter, Berlin

-Chomsky(Noam) structures syntaxiques, traduit par Michel Bradeau, Edition seuil , ١٩٦٠

-Galmiche Michel, Sémantique Générative, Langue Et Langage Larousse, Paris, ١٩٧٥.

-Pollock. Jean-Yves, Langage et Cognition, ----Introduction au Programme Minimaliste de la Grammaire Générative, Presses Universitaires de France, Deuxième Edition, ١٩٩٨.

* * *